

تبريرات لقيام دولة القومية

الفصل الرابع

لقد تعلّمنا بأنّه يتمّ تعريف إسرائيل كدولة قومية يهودية، ورأينا بأنّ دول العالم أقرّت هذه الهوية في قرار الجمعية العامة للأمم توثيقة الاستقلال، وقد التزمت إسرائيل بتطبيق قيم ومبادئ ديمقراطية وتمكين الأقليات من ممارسة حقوقها التي نصّ عليها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ووثيقة الاستقلال. وعليه فإنّ تعريف إسرائيل كدولة قومية هو، إذن، حقيقة قائمة. زد على ذلك أنّ دولاً ديمقراطية كثيرة تعرّف نفسها كدول قومية بمفهوم إثني- ثقافي ومن ضمنها الأكثرية الساحقة من بين دول أوروبا. لكن السؤال الذي يُطرح هنا هو: هل يشكّل تعريف دولة ما على أنّها دولة قومية ظاهرة عادلة من وجهة نظر أخلاقية؟ والمقصود، ألاّ يمسّ هذا التعريف بحقوق الفرد وبالطابع الديمقراطيّ للدولة؟

سنتناول في هذا القسم الأسئلة التالية:

- ما هي تبريرات الدولة القومية بشكل عامّ ودولة القومية اليهودية بشكل خاصّ؟
- ما هي التبريرات الدينية والجماعية؟
- ما هي التبريرات الليبرالية والديمقراطية؟

خلفية تاريخية

رأينا أنه جاء في وثيقة الاستقلال بأنّه "من الحقّ الطبيعي للشعب اليهودي أن يكون مستقلاً في حدود في دولته السيادية مثله مثل سائر الشعوب الأخرى". الحقّ الطبيعي هو الحقّ الذي يعتبر مفهوماً ضمناً ولا يتطلّب المزيد من التبريرات، مثل حقّ الإنسان في الحياة.

إنّ الخلفية لهذا الإعلان حول "الحقّ الطبيعي" في الحصول على دولة قومية يهودية هي الاعتراف بـ "حقّ تقرير المصير" لكلّ الشعوب، في إطار "النظام العالمي الجديد" الذي تمّ الإعلان عنه بعد الحرب العالمية الأولى، مع الإشارة إلى أنّه كانت في العالم في عهد ما قبل الحرب بعض الدول الكبرى التي كانت تهيمن على أراضٍ مترامية الأطراف وعلى العديد من المجموعات القومية. في أعقاب انبعث الفكر القومي في القرن التاسع عشر بدأ يتطور المفهوم القائل بأنّه من أجل ضمان الحرية يجب إتاحة قيام دول قومية مستقلة غير خاضعة لسلطة دول أجنبية كبرى. كان مفهوم الأيديولوجية القومية والأيديولوجية الديمقراطية في القرن التاسع عشر بأهمّ أختان وقد انبرى أنصارهما معاً في النضال الذي خاضوه ضد الأنظمة القديمة. مقابل استبعاد بعض الشعوب لشعوب أخرى لم تكن هناك حاجة لتعليل حقّ تقرير المصير القومي الذي اعتبر بمثابة "حقّ طبيعي".

غير أنّ الحرب العالمية الثانية بدّلت مفهوم النموذج الأخلاقي الأمثل للدولة القومية الإثنية- الثقافية. لقد كان أكبر أعداء البشرية في العصر الحديث أدولف هتلر الذي اقترف جرائمه بناء على الأساس الأيديولوجي الذي يعتمد على القومية الألمانية، غير أنّ الصدمة التاريخية لما اقترفه هتلر اضطرّتنا إلى إعادة التفكير بطريق الأيديولوجية القومية وإلى وضع حدود لها. وإذا كانت

النسخة الفظيعة من القومية الألمانية في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين لا تنطبق على الأيديولوجيات القومية إلا أنه لا بدّ من إعادة التفكير في العدالة الأخلاقية في اعتبار حقّ تقرير المصير القومي بمثابة "حقّ طبيعي".

احتفال سنوي للهوية اليهودية والثقافة الإسرائيلية
يقام هذا المهرجان خلال عطلة عيد المظلة السوكوت منذ عام 1997 بدون توقف، حيث يقوم بتجديد التقاليد اليهودية العريقة التي ترى أنه في عام بوار الأرض كان الشعب يتجمّع ويدرس ويفسر التوراة حسب روح العصر. تشارك في هذا الحدث مجموعات وأفراد من العلمانيين، المتدينين، الشباب والكبار لكي تساهم في التجربة التعليمية الممتعة وإجراء النقاش والإبداع بصورة مشتركة في شؤون الثقافة اليهودية والإسرائيلية.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تم فحص فكرة الدولة القومية مقابل إمكانية وجود دولة قومية مدنية سياسية تتعامل مع عموم مواطنيها بمساواة. تبرير وجود دولة قومية إنثنية يواجه إذن تحديًا جديدًا يتطلب عرض أفضلية أخلاقية في دولة قومية إنثنية-ثقافية.

رغم أنّ وثيقة الاستقلال قد وضعت بعد الحرب العالمية الثانية، فإن تبريرات إقامة الدولة القومية اليهودية المذكورة في الوثيقة لا توفّر دومًا ردًا شافيًا للخطاب الدولي الذي تطوّر في أواخر القرن العشرين وفي مطلع القرن الحادي والعشرين والذي نجد فيه الكثير من المتحدثين الذين يوجهون انتقادات لفكرة الدولة القومية بشكل عامّ وانتقادات أشدّ لفكرة الدولة القومية اليهودية، ولذا فعلىنا بحث تبريرات إقامة الدولة القومية والدولة القومية اليهودية.

ما هو التبرير النابع من التوجّه الجماعيّ؟

الشعب أو المجموعة، حسب هذا المفهوم، أهمّ من الفرد، الشخص. حسب هذا المفهوم، الغاية التاريخية للأمم هي في التعبير عن طابعها القومي الخاصّ بها في إطار دولة قومية، بينما لا يشكّل الأفراد سوى وسيلة لتحقيق الغاية القومية.

ما هي التبريرات الليبرالية لإقامة الدولة القومية؟

يعتمد التبرير الليبرالي على فلسفة تعنى بالالتزام بالعمل لصالح كلّ إنسان وتمكينه من تجسيد شخصيته بحرية.

أهمية التبريرات الليبرالية كبيرة

الاعتراف المبدئي بحقوق الفرد هو القاسم المشترك الذي يمكن أن تتفق عليه الأطراف المختلفة في عقيدتها كنقطة انطلاق لنقاش قيمى، وعليه فإن الطريق الليبرالية تشكل وصفة للاتفاق بين البشر في ظروف عدم الاتفاق على الآراء والمعتقدات. ومن هنا، فإن التبريرات الليبرالية التي تؤكد على قيمة تجسيد الفرد لدولة قومية لها صلة بدولة إسرائيل ليس فقط لمن يؤمن بالديانة اليهودية أو بالرسالة التاريخية للشعب اليهودي، ذلك لأنّ منطلق التبريرات الليبرالية قد يكون مقبولاً على مختلف مواطني الدولة من اليهود العلمانيين، المتدينين والعرب في إسرائيل، مع الإشارة إلى أنّ هناك يهودًا وغيرهم لا يوافقون على هذه المعتقدات المذكورة في الحلبه الدولية.

ما هو تبرير الدولة القومية حسب الحقّ في الثقافة؟

نعتقد، للوهلة الأولى، أنّ المفهوم الليبرالي يعارض فكرة الدولة القومية وذلك لأنّ الليبرالية تعني التزام الدولة بمصلحة الإنسان الفرد، وعليه فإننا لا نتوقع من دولة ليبرالية أن تهتم بشؤون مجموعة قومية إثنية-ثقافية. علاوة على ذلك، هناك خوف من أن يؤدي اهتمام الدولة بشؤون مجموعة إثنية-ثقافية معينة إلى المسّ بالحقوق الفردية لأعضاء مجموعات الأقلية من بين المواطنين.

الحقّ في الثقافة يعني حقّ الشخص في اختيار الإطار الثقافي الذي يودّ العيش فيه. من أجل حماية الحقّ الجماعي في الحصول على الثقافة لا بدّ من إتاحة المجال لأبناء الثقافة المذكورة لتنشئة الأجيال القادمة في محيط يعبر عن روح ثقافتهم، وهذا يعني أنّ اللغة، أيام العطفة، الطقوس الحياتية من الولادة وحتى الوفاة، الرموز، الرواية التاريخية، الجهاز التربوي العام، وطابع النظام العام، يجب أن تعبر جميعاً عن الثقافة التي تشكّل ثقافة قومية.

كما أنّ على القيم التي تراعيها سلطات الدولة والرموز التي تستعملها أن تعبر عن مضمون ثقافي، سيما وأن قرار الحكم الذي يعطى في حالة ما في ثقافة ما يختلف عن القرار الذي يعطى في نفس الحالة في ثقافة أخرى. وعليه فإن الدولة القومية تشكل حلبة ضرورية لتطبيق قيم ثقافية على نطاق الدولة.

كما أن هناك أهمية للحضور العددي لأبناء الثقافة المحمية في هذا المحيط بصورة تضمن استمرار الوجود النابض لثقافة الأكثرية خلال الأجيال القادمة. لذا تبذل جهود للمحافظة على أكثرية مستقبلية واضحة لأبناء ثقافة الأكثرية الراهنة في نطاق الدولة القومية.

كذلك، وفي دولة سيادية فقط نجد سيطرة فعّالة على الهجرة بصورة تتيح المحافظة على أكثرية واضحة لأبناء الثقافة المحمية وبالتالي فإن الدولة القومية فقط يمكنها أن تشكّل بيتاً ينضوي تحت لوائه أبناء القومية وتوفير الدعم له بصورة فعّالة. رغم ذلك، بما أنه يدور الحديث عن فلسفة ليبرالية، فحسب توجه الحقّ في الثقافة لا بدّ من الحفاظ على حقوق الأقليات التي لا تنتمي إلى ثقافة الأكثرية. يجب أن يتمتع أبناء هذه الأقليات بكافة الحقوق الثقافية الفردية والجماعية في مناطق سكنهم، لكن هذا الالتزام لا يمنع من ثقافة الأكثرية أن تفرض هيمنتها، ولا يحرم مجموعة الأكثرية من حقّ التأثير على الحيز العام. وبالتالي فإن على أبناء الأقليات أن يمارسوا حقهم بثقافة داخل دولة في إطار الدولة القومية أخرى.



مسرح "هيبما"، المسرح القومي
المجدد، 2011
الويكيبيديا العبرية من Ilan
Costica



حسب أصحاب فكرة الحقّ في الثقافة الذين يؤيدون العادات المتبعة في مختلف أنحاء العالم لإقامة دول قومية، فإنّ إقامة الدولة القومية اليهودية هي أمر منطقيّ وذلك لأنّ هذه الدولة في الواقع هي الوسيلة التي يمارس أبناء الشعب اليهودي من خلالها حقّهم في الثقافة. فالدولة القومية اليهودية هي الوحيدة التي يمكن للعبرية أن تكون هي اللغة المهيمنة فيها، وهي الوحيدة التي يمكن لأيام العطل والأعياد أن تعبر فيها عن التراث اليهودي؛ وهي الوحيدة التي يمكن لعلم الدولة فيها أن يكون مشابهاً للطاليت (لباس ديني يهودي)، ويكون الشمعدان هو شعار الدولة، والنشيد القوميّ فيها يتحدث عن شتات الشعب اليهودي وانبعائه من جديد. زد على ذلك أنّ الدولة السيادية اليهودية هي السبيل الوحيد لضمان أكثرية يهودية على طوال أجيال للحدّ من ظاهرة انصهار اليهود في الشعوب الأخرى ولضمان بيت ثقافي لكلّ أبناء الشعب اليهودي في البلاد والمهجر، وكذلك فإنّ الدولة القومية اليهودية يمكنها أن تشكل ملجأ لليهود الشتات.

ما هو تبرير إقامة الدولة القومية كوسيلة للحصول على التضامن المدنيّ؟

يعتمد تبرير آخر لإقامة الدولة القومية على مدى إسهامها في حماية الحقوق المدنية والسياسية والحقوق في شؤون الرفاه والحقّ في الأمن الشخصي. يستند الادعاء في هذا الشأن على فرضيتين، هما: الأولى - من أجل ضمان مقدار كاف من حماية حقوق الإنسان فإن هناك حاجة للتضامن ما بين عموم المواطنين وما بينهم وبين الدولة. لن يحترم المواطنون حقوق بعضهم البعض إلا حين يوافقون على التنازل عن موارد اقتصادية لصالح زملائهم المحتاجين لها، وحين يكون لديهم الاستعداد لتحمل المخاطر المنوطة بحماية الدولة وحدودها. الثانية - توفر تضامن كبير بين أعضاء المجموعة القومية الإثنية- الثقافية، وبالتالي فإن الدولة القومية يمكنها استغلال التضامن الطبيعيّ داخل المجموعة القومية للحفاظ على حقوق الإنسان داخلها. وعليه، في حالة دولة إسرائيل، فإن التضامن الطبيعيّ بين اليهود يمكن استغلاله في الدولة القومية اليهودية لسنّ المزيد من قوانين الرفاه الاجتماعيّ لصالح الطبقات الضعيفة والاستعداد للمخاطرة من أجل حماية أمن مواطني الدولة. يجب التأكيد على أنه إذا دار الحديث عن دولة ليبرالية تحافظ على حقوق عموم المواطنين داخل أراضيها، فإنّ التضامن القومي لا يعود بالنفع على مجموعة الأكثرية القومية فقط، وإنّما على مجموعات الأقلية أيضاً. إذا كان التضامن اليهوديّ يخصّ مواطني إسرائيل على سنّ قوانين خاصة بضمان الدخل أو الحد الأدنى من الأجور فإنّ هؤلاء المشرعين سوف يبعثون البهجة لدى عموم المواطنين بغض النظر عن الفروق القومية. وبالتالي فإنّ الدولة القومية ضرورية، إذن، للنهوض بالقيم الليبرالية لحقوق الفرد في مجالي الأمن والرفاه.

ما هو التبرير الديمقراطيّ لإقامة الدولة القومية؟

هناك تبرير آخر يرتكز على حقّ مواطني الدولة في بلورة الحيز العام للدولة، من خلال المبادئ الديمقراطيةية لسلطة الشعب وحسم الأكثرية شريطة عدم المسّ بحقوق أبناء الأقلية في تخطيط حياتهم بصورة مغايرة. حسب الادعاء الديمقراطيّ، فإن حقيقة اختيار غالبية مواطني الدولة منحت الدولة طابعاً عاماً من وحي التراث القوميّ، تبرّر تعريف الدولة كدولة قومية. حسب الادعاء الديمقراطيّ- الذي يرتكز على حسم الأكثرية وسلطة الشعب، فإن دولة ذات قومية مدنية- سياسية أيضاً تختار قيمها حسب حسم أكثرية مواطنيها وممنوع التمييز بين عمليات الحسم التي تقوم بها أكثرية قومية تعود جذورها إلى ثقافة قومية عريقة وبين عمليات حسم تعود إلى قرارات مواطنين في الدولة القومية السياسية. يدور الحديث في كلتا الحالتين عن حسم الأكثرية ضد موقف الأقلية ولا بد من احترام حسم الأكثرية إذ لم يمسّ بحقوق الأقلية.

ما هو تبرير إقامة الدولة القومية اليهودية على ضوء الحق في الأمن ومنع الملاحقة؟

ثمة أهمية خاصة للتبرير الأخير عند الحديث عن الدولة اليهودية، لأن هذا التبرير وارد أصلاً في وثيقة الاستقلال. فقد تعرّض الشعب اليهودي على مدار التاريخ لملاحقات شرسة في جميع أنحاء المعمورة تقريباً، وكانت المحرقة خلال الحرب العالمية الثانية الملاحقة الأكثر ضراوة، ولم تندمل جروح أبناء الشعب اليهودي حتى الآن من جراء مقتل ستة ملايين يهودي. وكانت عملية الإبادة للشعب قد نجمت عن كراهية لاسامية مريعة، وعليه فإن إقامة الدولة القومية اليهودية ذات الأكتريّة اليهودية الملحوظة على مر الأجيال هي ضرورية لمنع ملاحقة اليهود داخل حدود الدولة اليهودية ذاتها ومن أجل توفير مكان يلجأ إليه اليهود من كافة أنحاء العالم إذا كانوا بحاجة لذلك.

من حقّ البشر توفير الحماية لهم من الملاحقات الجسدية، ومن تجريح كرامتهم والاعتداء على ممتلكاتهم وعلى حريتهم وعلى حياتهم نظراً لأنّ هذه الحقوق هي حقوق إنسان أساسية للغاية، وبالتالي، فإذا كان لدينا أشخاص يعانون من ملاحقات شرسة وإذا كنا نتوخى توفير السلامة والحماية لهم فلا بدّ من إقامة الدولة القومية لأنّ هذا الأمر من أبسط مبادئ العدل.

هناك من يعتقدون أن هذا التبرير قد عفا عليه الدهر في مطلع القرن الحادي والعشرين، من منطلق أن العالم، كما يعتقدون، بات مستقرّاً وأنّ مخاطر اللاسامية قد ولّت إلى غير رجعة. غير أن هذا الادعاء لم يعد نافذ المفعول في ظلّ عدم الاستقرار الذي اجتاحت العالم والذي يتجسّد، مثلاً، باعتداءات 11 أيلول في عام 2001 في الولايات المتحدة، بالثورات التي شهدتها الدول العربية في عام 2011 والتي يتميز بعضها بالطابع الإسلامي، بالتحوّلات السياسيّة الحاصلة في تركيا وبالتوترات الإثنيّة والعرقية في دول غرب أوروبا. الدولة القومية اليهودية هي الوحيدة التي يمكنها أن تحافظ على الأكتريّة العددية لليهود على مر الأجيال ويمكنها أن تضمن ملجأً آمناً لكلّ يهود العالم. لكن الشعب اليهودي، بالذات، والذي تعرض لسلسلة من الملاحقات والويلات مجرد أنه كان يشكّل أقلية، يتوجّب عليه الحفاظ على حقوق الأقلّيات. على الدولة القومية اليهودية، على غرار أيّ دولة ليبرالية، احترام حقوق الأقلّيات والحفاظ على طابع الدولة القومية.

وبالتالي، فالقاسم المشترك لكل التبريرات التي استعرضناها هنا هو الحاجة الماسّة إلى أن تكون إسرائيل هي الدولة القومية اليهودية، لكن من المفروض أن تكون دولة ليبرالية تحترم حقوق عموم سكّانها أيضاً. ومن هنا فعلى إسرائيل أن تكون دولة قومية إثنيّة ديمقراطية.

تمارين لتبريرات دولة القومية:

1. ما هي التبريرات التي استعرضناها في هذا الفصل لإقامة الدولة القومية اليهودية الواردة في وثيقة الاستقلال وما هي التبريرات غير الواردة فيها. اعتمد في إجابتك على وثيقة الاستقلال.
2. وردت في هذا الفصل عدة تبريرات لإقامة الدولة القومية. درّجها حسب أهميتها. ما هو التبرير الذي تراه الأنسب. علل إجابتك.
3. وردت في هذا الفصل عدة تبريرات. اختر أحد التبريرات وافحص إذا كان مطبّقاً في دولة إسرائيل.
4. هناك من يعتقد أنه لا يعقل أن تكون في العالم في العصر الراهن دول قومية، من منطلق أنّ العالم تحوّل اليوم إلى قرية عالمية حيث ينتقل الناس من دولة إلى أخرى، ونلمس فيها الكثير من التأثيرات الثقافية لدولة على دولة أخرى. ما رأيك في ذلك.